رحلة جغرافية عمرانية

لوصفي زكريا

﴿ الوضع الطبغرافي ﴾ يتألف القطر اليماني من ثلاثة أقسام : الاول المنخفض ذو البراري والسباسب المنبسطة والاقليم الحار والهواء الرطب ويدعى « تهامة » ويجمع على تهائم ،والثاني المرتفع ذو الاطواد والهضاب الشاهقة والاقليم البارد والهواء الجيد ويدعى «قسم النجود» او «قسم الجبال » وهي تمتد جبال السرا ، والثالث المنخفض ايضاً شرقي قسم الجبال،وهو ذو براري وسباسب كانت في عهد ملوك سبأ عامرة غناء فاصبحت بعدهم غامرة قفراء : ويدعى هذا القسم « الجوف » وهو بمثابة تهامة في الغرب ، واقليمه حار لكن هواءه جاف وجيد

﴿ وصف تهامة ﴾ تهامة برية عظيمة مستطيلة الشكل تمتد من الشمال الى الجنوب من جدة على ساحل البحر الاحمر الى عدن في ساحل المحيط الهندي ، على طول يقدر بالفي كيلو متر ، وهي تنحصر بين قسم الجبال والبحرين المذكورين على عرض يتفاوت بين ٦٠ و١٢٠ كيلو متراً وهي تنقسم الى تهامة الحجاز وتهامة عسير وتهامة اليمن . وتهامة اليمن اما غربية وهي التي على البحر الاحمر واما جنوبية وهي التي على المحيط الهندي . وحديثنا عن الاخيرتين في الاكثر

كانت تهامة في الاصل قعراً للبحر الذي انحسر عنها في الطور الجيولوجي الاخير. يستدل على ذلك بطبيعة ارضها ووفرة رمالها وكثرة الاحافير والاصداف البحرية التي تظهر في تربتها السفلى . ولا يزال انحسار البحر الاحمر وارتفاع سواحله متوالياً على كر الدهور . فالرمال ما برحت تطمر مرافئه وتمنع السفن الكبيرة من الوقوف الا على بعد شاسع .حدث هذا الطمر قبل اربعة او خمسة قرون في مرفأ غلافقة وقد كانت كما قال ياقوت في معجم البلدان مرسى زبيد ، وكانت زبيد خاصة تهامة واكبر مدنها فيما مضى ، فلما اندثرت غلافقة انحط شأن زبيد . وحدث الطمر ايضاً الى حدٍّ كبير في ميناء مخا ، فكان ذلك من دواعي انحطاطها وانتقال عمرانها الى الحديدة الحديثة العهد . ويحدث هذا الطمر والاندثار الآن في اللحية وامثالها من الموانئ الصغيرة فيتجدد غيرها على توالي العصور وهكذا دواليك

وبسيط تهامة يتموج تموجاً خفيفاً ويحدث قلمات متواضعة وتعترضه اودية حصيّة منحدرة

من انحاء الجبال ، اكثرها جاف في اغلب ايام السنة وبعضها حار ، وتعترضه ايضاً كثبان رمال ترداد في بعض الاماكن وتمتد الى مسافات شاسعة وتتحرك سطوحها بفعل الرياح كما هو الحال بين الحديدة وباجل وحيس وميناء غلافقة المندثر . وفي بعض شطوط تهامة مرتفعات صخرية تؤلف آكاماً تظهر في سواحل الشيخ سعيد ولاسيما حول مرفأ عدن

ومعظم بسيط تهامة قابل للحرث والزرع وذو خصب يقوى في بعض الاماكن لاسيما اذا جادها الامطار وقاضت الاودية المنحدرة من الجبال بالسيول وسقى الزراع جفوفهم منها — حيث تنمو الزرع والغرس نمواً عظيماً وتغزر محاصيل الدخن والذرة والسمسم والتبغ والنيلة والقطن والبطيخ ، والاشجار المثمرة وهي النخيل والموز والعنبا والليمون وغيرها . وفي تهامة نباتات وأعشاب برية شائكة وغير شائكة تنتسب الى فصائل مختلفة منها العصل الذي يعملون منهُ خيماً والبكار والثمام اللذان يستعملان في بناء العشش والاكواخ . وفيها من الاشجار غير المثمرة السمر والسلم والدوم والعشر والنشوى والخروع الهندي وغيرها . وتؤلف هذه الاشجار في بعض اماكن تهامة ادغالاً مكثفة كان يعتصم بها ثوار القبائل في حروبهم مع الدولة العثمانية

قال ياقوت : وسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها وهو من التهم اه . لاجرم ان تهامة شديدة الحرارة تتفاوت درجتها في الحديدة في الصيف بين ٣٠ـ٣٥ ليلاً و ٤٠ نهاراً ولا تقل في الشتاء عن ٢٤ـ٢٥ وانها شديدة الرطوبة تبلغ احياناً درجة الازهاق (٨٠ — ٩٠) وذلك لقربها من خط الاستواء ومجاورتها البحر . لهذا لا يمكن سفر القوافل وانشاء والركبان في تهامة الا ليلاً خوفاً من الرعن ولا يمكن النوم في ليالي الصيف الا على السطوح وفي العراء . وتهب فيها احياناً ريح السموم فتسفي الرمال وتحدث أعاصير ، ولا يلطف الحر الا هبوب الريح الجبلي الشرقي او البحري الغربي

واهل تهامة شافعية المذهب ، نحاف الابدان ، ربعات القامة او اطول ، سمر الوجوه لحر بلادهم ولاختلاطهم بالدم الصومالي او الحبشي من قديم الزمان . وهم في الجملة أدمث خلقاً وألين جانباً وأرفد للغريب وأقرى للضيف من اهل الجبال . لكن الامية اكثر انتشاراً في اهل تهامة منها في اهل الجبال ، وكذلك الشقاق والتناحر . ويعزى ذلك الى ان الشافعية ليسوا كالزيدية ذوي ائمة وسادة يعنون بشئونهم الروحية والزمنية الى حدٍّ ما . والفرقة بين الشافعية والزيدية ما برحت ملحوظة . وهذه الفرقة سياسية وادارية اكثر منها مذهبية ، لو عني بشأنها زالت

وسكان السواحل في تهامة يعملون في البحر بالنوتية وصيد الاسماك وبناء الزوارق وبعضهم بالغوص واستخراج الصدف واللؤلؤ ، ولهذه الحرفة تجارة رابحة ، ويعمل اهل الحديدة وعدن بتجارة الصادر والوارد من اليمن واليه . وسكان السهول والقرى الداخلية يعملون في تربية الزرع والضرع ، ويعمل امثال اهل زيد وبيت الفقيه بالصبغ والنسج مما سوف نذكره

وفي تهامة قبائل شتى أشهرها الصيحة والزرائيق والقحرى وبني صليل والعبسية والجرابحة

وبنو مروان ودوغان وبنو قيس وغيرهم . وليست هذه القبائل رحالة بل مستقرة في قراها وضمن حدودها ، تعمل في الزرع والضرع ، وتسكن بيوتاً من الاعشاش . والزرانيق أشد هذه القبائل بأساً وخبثاً وأطولها يداً في قطع طريق البر وقرصنة البحر وفي تهريب السلاح والرقيق قبل منعهما . مواطنهم حول بلدة بيت الفقيه بين الحديدة وزبيد ، حاربوا الترك الثمانيين مراراً ولم يزالوا مشاقين لهم لما في مواطنهم من الحر الشديد والادغال الملتفة التي يختبأون بينها . وأرادوا ان يعيدوا الكرة هذه مع جلالة الامام الحالي بقيادة بعض الدسائس الاجنبية فساق عليهم جيشاً قبل بضع سنوات ، قمع فتنتهم وأمكث ثأمتهم . والقحرى ايضاً من القبائل القوية تسكن بين وادي سردود ووادي باجل ، لكنها ليست من الشر في ما يعامل الزرانيق

وكانت تهامة في اكثر عصور تاريخ اليمن ولاسيما في العصور الاسلامية منفصلة عن قسم الجبال . قامت فيها دول عديدة مستقلة ، كدولة بني زياد وبني نجاح وبني الصليحي وبني ايوب وبني الرسول وبني طاهر ، وسيأتي ذكر ذلك في بحث التاريخ . ويظهر ان هذه — الدول ما استطابت النشأة والمقام في تهامة رغم حرها ووباء هوائها الا لكثرة محاصيلها ووفرة ربح المسكوس التي كانت تقتضيها من قوافل البر وسفن البحر الواردة من الهند وافريقية الشرقية ومصر والحجاز والشام . فكانت تهامة مركز التوزيع بين هذه الاقطار قبل فتح قناة السويس ، وكانت ميناء عدن ومخا مركز التصدير والتوريد . الا ان الدول المذكورة لم تكن لتقنع بتهامة ، بل كانت كلما اشتد ساعدها ورأت ضعف ائمة الزيدية بسطت ايديها نحو الجبال فملكتها مدة ، ثم أخلتها اذا عجزت عن حفظها . وهكذا كان شأن أئمة الزيدية ، كلما قووا ورأوا خلو التهائم من الحفظة استولوا عليها ، واذا ضعفوا اضاعوها وحكمها كبراؤها . وظل هذا الاخذ والرد حتى تم جمع المنطقتين نهائياً في عهد الترك الاخير سنة ١٢٨٩ هـ وفي عهد جلالة الامام الحالي سنة ١٣٤٣ بعد ان نازعه عليها الادارسة الذين كانوا اصحاب عسير

وثمة في سواحل تهامة على البحر الاحمر عدة جزر بعضها صغير غير مأهول لا يزوره الا الصيادون والغواصون . ولكن أكبرها حجماً وأجلها قدراً قران وبريم . فقران في شمالي الحديدة ، كان الترك انشأوا فيها قبل نصف قرن محجراً صحياً فحفلت بالسكان منذ ذلك الحين ، ثم احتلها الانكليز غضب الحرب العامة . وبريم وتدعى ايضاً ميون في مضيق باب المندب ، لها مرفأ عميق صالح للبواخر . ورغم حرمان هذه الجزيرة الصغيرة القاحلة من اي اثر للماء والخضرة فقد أوجد فيها الانكليز منذ ان احتلوها في الربع الاخير من القرن الماضي الماء المقطر وكل ما تحتاج اليه البواخر الداخلة والخارجة من البحر الاحمر من فحم ومؤونة . وتجاه هذه الجزيرة في ساحل اليمن موقع غير مأهول له امكانة عسكرية كبرى يدعى الشيخ سعيد فيه لحكومة اليمن مخفر للجنود ومركز للبرق

وفي ساحل تهامة وداخلها مدن وقرى عديدة . منها في الساحل بيدي واللحية والصليف

ولبن عباس والحديدة والطائف وغلافقة والخوخة ومخا وعدن . وفي الداخل عبال وباجل والزيدية والقطيع والدريهمي والمتيرة والزهرة والضحي والمراوعة وحيس وبيت الفقيه وزبيد ، وفي تهامة الجنوبية وراء عدن الشيخ عثمان والحوطة والراحة وبير احمد والحسوة وغيرها

واكبر مدن تهامة وأشهر موانيها على البحر الأحمر في عهدنا (الحديدة) . ويظهر من عدم ذكرها في كتب جغرافي العرب انها لم تكن لمضي ثلاثة قرون او أربعة سوى قرية حقيرة يقطنها الصيادون . الا انهُ بعد ان طمرت الرمال ميناءي مخا وغلافقة ولعذر على السفن ان ترفأ اليها سعدت الحديدة بالعمران . وهي الآن مدينة كبيرة يقدر عدد سكانها بثلاثين الفاً ، جميعهم عرب شافعية المذهب ، بينهم خلاسيون أمهاتهم من رقيق الحبش او الصومال وفيها قليل من الهنود البانيان واليهود ومن اليونان والطليان المشتغلين بالتجارة . والحديدة محاطة بسور بني سنة ١٢١٥ هـ لهُ خمسة ابواب وعدة ابراج ، وفي داخل السور دور حجرية جميلة بفناء وبعضها ذو طبقتين وثلاث وثمة عدة أسواق تمس بحوانيت الباعة والتجار وستودعاتهم . وفيها حركة بيع وشراء واصدار واستيراد ، كانت أقوى من الآن كثيراً في عهد الترك . وفيها عدة مبان حكومية ومساجد ، غير ان ساحلها مكشوف ومعرض للانواء ، تلجأ السفن عند اشتدادها الى خليج الحيامة في جنوبها . وحر الحديدة شديد ووبيء تزداد وطأته بحكم شدة الرطوبة ايضاً وفي خارج سورها احياء ودور كثيرة كلها عشش وأكواخ . وليس في الحديدة الا قليل من البساتين لفقدان المياه الجارية والملوحة التربة ، ولذا تأتيها البقول والثمار من القرى والجبال القريبة منها . وماء الشرب يجلب اليها من آبار تبعد نحو أقل من ساعة ينقل في براميل محمولة على عجلات تجرها الجمال . وفي شمالي الحديدة على بعد ٢٤ ساعة عنها (اللحية) ، وهي بليدة وفرضة على البحر محاطة بسور وفيها ثلاثة مساجد ، وفي خارج سورها حصن ، ويجلب اليها ماء الشرب من آبار تبعد ساعتين او ثلاث . و (الزيدية) بليدة تبعد عن الحديدة ١٢ ساعة بيوتها عرائش ، ينسج فيها حصر من ورق شجر الدوم يشبه النخل . و «باجل» بليدة تهامية على طريق صنعاء تبعد عن الحديدة عشر ساعات لها قلعة قديمة ومسجدان ودار حكومة . وفي جنوبي الحديدة بليدة (المراوعة) ذات مساجد وحوانيت ومصانع لنسج الفوط والبزوز المتنوعة ومعاصر لعصر السمسم ويسمون زيته في اليمن سليطاً ويزرع حولها النيلة والقطن والبطيخ . و (بيت الفقيه) في جنوبي الحديدة وعلى بعد اثنتي عشرة ساعة . وهي مبنية على تل مرتفع ، وهواؤها وماؤها أجود ما في مدن تهامة ، ودورها من الاجر ومن العريش ، وفيها حوانيت كثيرة وخمسة مساجد ، أحدها جامع كبير ، وفيها حصن ، وقد اشتهرت بمنسوجاتها الجيدة المتينة المنسوجة من الحرير والقطن ، وعدد سكانها خمسة عشر الفاً ، وحولها نخيل كثير . وفي جنوبي بيت الفقيه وعلى بعد ست ساعات تقع مدينة (زبيد) بنيت في فم وادي زبيد ووسط سهل خصب كثير النخيل ، وأحيطت بسور

مربع الشكل شيد من الاجر ، وفيه أبراج كثيرة وأربعة أبواب وفي داخلها قلعة بني فيها دار للحكومة وجامع باسم بانيه اسكندر باشا ، وفي البلدة جامع آخر كبير لمصطفى باشا النشار أحد ولاة الترك في اليمن . وفي زبيد من السكان عشرون الفاً ، ودورها من الاجر أو العريش . وفيها جوامع ومساجد ومدارس عديدة . قال القلقشندي في صبح الاعشى : زبيد مدينة مبنية في مستو من الارض ، عن البحر على أقل من يوم وماؤها من الآبار وبها نخيل كثير ، وبها مجتمع التجار من الحجاز ومصر والحبشة وهي شديدة الحر لا يبرد ماؤها ولا هواؤها . وقد كانت مقر ملوك اليمن بني الرسول كما ان تعز كانت مصيفهم . اه . وبعد ان كانت زبيد قاعدة تهائم اليمن حافلة بالملوك والامراء الذين سيأتي ذكرهم في بحث التاريخ وبالتجار والسفار وبدور العلم والعلماء والمدونين حسبك منهم الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط الذي حط رحاله في شيخوخته فيها ومات سنة ٨١٧ هـ ، وحسبك بعض ملوك بني الرسول مؤلفي الكتب العديدة في التاريخ والادب والطب . . . انحطّ شأنها بعد زوال دولة بني الرسول ، ولا سيما بعد خراب بناء غلافقة ثم مخا وانتقال السفن والتجار والحكام الى الحديدة ، فلم يبق من مجد زبيد وعمرانها ولا سيما من دور علمها وعلمائها الا أثر ضئيل . وفي جنوبي زبيد بليدة (حيس) فيها عدة مساجد ومطاحن ومصانع للنيلة ومصانع للاواني الخزفية . وفي اقصى الجنوب فرضة (مخا) التي كانت في العصور المتوسطة مدينة كبيرة تعد اكبر موانئ اليمن بل كل جزيرة العرب ، ويدخل مرفأها الامين سفن الهند والحبشة والزنج وتصل اليها قوافل مصر والحجاز وغيرها ، فتبادل العطور والطيوب والاصباغ والمنسوجات والمصنوعات والرقيق . وكان فيها ٧ — ٨ آلاف دار ، وعشرات من الخانات والمستودعات ، لا تزال اطلالها ماثلة . وكان البن اليماني النابع في لواء تعز واقضيته يصدر منها ويعرفه الافرنج باسم (بن مخا : Moka) . وظل هذا العز والعمران في مخا حتى طمر البحر مرفأها بالرمال فاضطرت السفن الى التحول الى الحديدة وعدن ، ثم دهمها القضاء المبرم في سنة ١٢٥٠ هـ حينما هاجمها السيريون ونهبوها وخربوها ، فأصبحت قرية حقيرة تندب مجدها الغابر

ومثل ذلك يقال عن مدن تهامة الجنوبية والغربية التي كانت قديماً قدرس اكثرها وخلفها غيرها . ذكر منها الهمداني وابن خلدون والمقدسي والعمري وغيرهم من جغرافيي العرب ، عدن ولحج وأمين والرواغ والشفاق والمندب والحصيب وهي قرية زبيد والقحمة والكدراء والهجم وعطينة والشرجة والحردة وغيرها . وصف المقدسي في كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) عدن فقال : بلد جليل عامر أهل حصين دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب معدن التجارات كثير القصور مبارك على من دخله مترامن سكنهُ مساجد حسان ومعايش واسعة ، قد أحاط به جبل ما يدور الى البحر ودار خلف الجبل لسان من البحر فلا يدخل اليه الا ان يخاض ذلك اللسان فيصل الى الجبل وقد شق فيه طريق في الصخر عجيب وعليه

ذب حديد ومدوا من نحو البحر حائطاً من الجبل الى الجبل فيه خمسة ابواب ، الاّ انها يابسة عابسة لازرع ولا ضرع ولا شجر ولا ثمر ولا ماء ولا كلأ كثيرة الحريق والوكف . وقال ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار : لم تزل عدن بلد تجارة من زمن التبابعة والى زماننا ، عليها ترد المراكب الواصلة من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة ويمتار اهل كل اقليم منها ما يحتاج اليه اقليمهم من البضائع . الاّ ان المقيم بها يحتاج الى ما يتبرد به في اليوم مرات من قوة الحر . ولكنهم لا يبالون بكثرة الكلف ولا بسوء المقام لكثرة الاموال التابية اه .

قلت : ما برحت هذه الاوصاف جارية في عدن على ما رأيت الاّ ان حالها قد حسن في الجملة منذ ان احتلها الانكليز في سنة ١٢٥٤ هـ فحفلت بالشوارع المستقيمة والمباني الجميلة والمتاجر الحافلة والحدائق المغروسة ، والحصون والمتاثر الظاهرة فوق الجبال السود المحيطة بها ، والماء المشروب الذي استجلبوه بعد الحرب العالمية من قرية الشيخ عثمان ، وهي اليوم من اهم نقط المواصلة بين الشرق والغرب ومن أحصن حصون البريطانيين ومركز أساطيلهم البحرية والجوية ومحطة عظيمة تموّن منها البواخر بالفحم والنفط وما يلزم ، وبندر كبير تستمد منهُ بلاد العرب وافريقية الشرقية عامة واليمن خاصة كل ما يلزمها من السلع ، وفيها وكالات البواخر التي تنشأها بكثرة في غدوها ورواحها بين الغرب والشرق . ويقدر سكانها بخمسين الفاً اكثرهم عرب مسلمون وبينهم الصومالي والهندي والفارسي والافرنجي . وبجهة عدن (الصهاريج) او اسداد الماء وهي من أجل الاعمال الهندسية في العالم تسع ثمانين مليون جالون ماء . وتاريخ انشائها مجهول ، يرجع الى قبل الميلاد بخمسة قرون او عشرة . وكانت هذه الاسداد مردومة عند احتلال الانكليز لعدن ثم كشفت ورممت في سنة ١٢٧٢هـ . وعدن في شبه جزيرة على ساحل البحر في دلتا وادي لحج وعندها ينتهي مخلاف لحج ، كما ان هذا المخلاف منتهى اليمن في الجنوب . ويقيم سلطان هذا المخلاف في بليدة اسمها « الحوطة » تبعد عن عدن نحو عشرين كيلومتراً ، وفيها من السكان نحو عشرة آلاف ، وفيها قصور السلطان واخوته ومساجد كثيرة . وسلطان لحج عبد الكريم فضل العبدلي واخوه الامير احمد قد اخذا بحظ وافر من الثقافة والحضارة لتفقدهما بين عدة سلاطين وامراء بقية المحميات ، ولها عناية بالعلم والادب والزرع والغرس . زرت بستاناً كبيراً للسلطان في شمالي الحوطة فوجدتهُ يحتوي على كثير مما لم اسمع الاّ باسمه من اثمار البلاد الحارة التي جلبت اشجارها من الهند ، كالجوافة والباط والسيتافل والرامفل والتارجيل والتمر الهندي والشيكو والبيذان والفناء والحيالي والمانجو وغيرها ناهيك بأثمار البلاد المعتدلة . وللامير احمد مؤلف مطبوع في مصر سنة ١٣٥١هـ دعاه «هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن» فيه بحث وتحقيق جديران بالثناء والاعجاب خاصة وقد انقطع التحبير والتحرير بين امراء اليمن منذ عهد بني الرسول اصحاب زبيد (٦٢٠-٨٥٨هـ)